﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورَۢا ١٨﴾ [الفرقان: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذَكَر في الآية السّابقةِ استجوابَه سبحانه للمعبودين مِن دونه، بمحضر عابديهم وتحتَ شهادتهم؛ استأنف هنا حكايةَ جوابِهم عليه سبحانه، وتبرئةَ أنفسِهم عن جناية العابدين وشِركِهم.

ساعةَ الحسابِ لا يُغني مولًى عن مولًى شيئًا

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّتَّخِذَ﴾: (أخذ) أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمعُهُ، قالَ الخَليلُ: هوَ خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[1]، فأصلُ الأَخْذِ تَناوُلُ الشَّيءِ باليَدِ[2]، وأمّا قوله: ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾ فمنَ (الاتّخاذ)، وهو (الافتعال) منَ (الأَخْذ)؛ ومعناه: المبالغة في الأَخْذ، وأصل (اتّخذ) معناه: أَخَذَ الشّيء لنفْسِه؛ وهذا يستلزم قبْضًا بقوّةٍ وحيازةً بشِدّة؛ وإذا تعدّى لمفعولٍ واحدٍ فمعناه: الكسْب، وإذا تعدّى لمفعولَيْن، فمعناه: التّصييرُ والجَعْل؛ فالأوّل كقوله تعالى: ﴿لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾ [الكهف: 77]، والثّاني كقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النّساء: 125]، وفي هذه الآية: ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يجوز أن يتعدّى لمفعولَيْن، فيكون بمعنى الجعل، فقوله: ﴿مِن دُونِكَ﴾ في محلّ نصب مفعولٍ أوّل، وقوله: ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ في محلّ نصب مفعولٍ ثانٍ، ويجوز أن يتعدّى لمفعولٍ واحدٍ؛ هو ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، و﴿مِن دُونِكَ﴾ مُتعلّق بالاتّخاذ أو بمحذوف حالٍ؛ أيْ: نتّخذ أولياءَ متجاوزين إيّاكَ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 271.
(3) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدةُ الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ)، والسّمين، الدّرّ المصون: 5/ 247، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 324.

2) ﴿مَّتَّعْتَهُمْ﴾: (متع) أَصْلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمتِعُ مَتْعًا؛ أيْ: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[1]، والتَّمَتُّعُ: الانتِفاعُ بِالمَتاعِ، والمَتاع في الأَصْل: كلّ شَيْء يُنتفَع بِهِ ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّد، والفناء يَأْتي عَلَيْهِ في الدُّنْيا[2]، والتَّمتيعُ: الإمهالُ، وأيضًا: التَّعْميرُ، ومِنْهُ قَوْلُه تَعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥﴾ [الشّعراء: 205]؛ أيْ: أَطَلْنا أَعْمارَهُم[3]، والمقصود بالتّمتيع في الآية: الانتِفاعُ القصيرُ زَمَنُهُ على جهة الإمهال الذي وسِع لاستيفاء آجالِهم واستكمال أرزاقهم، واكتُفي معه بحصول الذّكرى لأمثالهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: 37]، وهو انتفاعٌ قصير بالقياس إلى سرعة انقضائه ودوام عاقبتِه، وهو على جهة الإمهال والمَدّ باعتبار أنّه وافٍ وكافٍ.

3) ﴿بُورًا﴾: (بور) أصلٌ يدلّ على أمريْن؛ أحدهما: هلاكُ الشّيء وما يشبِهُه من تعطّله وخُلوّه، والآخر: ابتلاءُ الشّيء وامتحانُه[4]، والثّاني منَ الأوّل؛ لأنّ استمرارَ تجربة الشّيء وامتحانه تؤدّي إلى استنزافه وتعطيله، وكسادِه وإهلاكِه، والبور في قوله: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٨﴾ مصدرٌ كالبَوار، بار بوْرًا وبَوارًا، قال الفرّاء: "البور مصدر، يكون واحدًا وجمعًا، يُقال: رجلٌ بور، وقومٌ بور، والبائِر الذى لا شيء فيه، تقول: أصبحت منازلُهم بورًا؛ أيْ: لا شيءَ فيها، فكذلك أَعْمالُ الكفّار تبطُل"[5]، والبور: الرَّجلُ الفاسِدُ الهالِكُ الذي لا خيرَ فيه، ويُقال: أرضٌ بور: إذا لم تُنبِتْ، أو أنبتت ما لا نفعَ فيه[6]، وقيل: بور: جمع: (بائر)، اسم فاعل من (بار)، كعائذٍ وعوذٍ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال المعبودون من دون اللّه: تنزيهًا لكَ - يا ربَّنا - عَمّا فعلَ هؤلاء، فما يَصِحُّ أن نَتَّخِذ سواكَ أولياء نواليهم، ولكن متَّعتَ هؤلاء المشركين وآباءَهم بالمال والعافية في الدُّنيا،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (متع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بور).
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 264.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (بور).
(7) السّمين، الدّرّ المَصون: 8/ 466.

حتّى نَسوا ذِكْرَكَ فأشركوا بك، وكانوا قومًا هَلْكَى، غلبَ عليهمُ الشّقاءُ والخِذْلان[1].

لا أثرَ للمتاعِ ولا قيمةَ للنّفوذِ إذا كان صاحبُه منَ المُبْعَدينَ يومَ الدّيْنِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ﴾ ممّا قبلها:

جملة ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن سُؤالٍ مُقَدّرٍ، كأنّه قيل: فماذا أجابوا بعد استنطاقهم واستشهادهم؟ فقيل: ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ﴾[2]، ولمّا كان السّؤال على التّعريض التّوبيخيّ، والمقصودُ تبكيتُ المعاندين وزيادةُ حسراتِهم وأَسَفِهم، وإلزامُ الحُجّةِ عليهم، وتفضيحُهم على رؤوس الأشهاد، وتغبيطُ المؤمنين إذا سمعوا هذا الجواب، أجابوا أوّلًا بما يدلُّ على تبرُّئِهم من نسبة الإضلال إلى أنفسهم بأقصى ما يمكن منَ المبالغة خذلانًا لهم؛ فأطنبوا بقولهم: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ إلى آخره؛ تعجُّبًا، وثانيًا: بما يدلُّ على أنّ الكَفَرة هم ضَلّوا السَّبيل، لكن بتقدير الله وإضلاله، فأطنبوا في تعبيرهم بقوله: ﴿وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ إلى آخره[3].

خـيرُ الـكـلامِ ما افتُتِح بالتّمجيدِ والتّسبيحِ

دلالةُ العدولِ من المضارعِ إلى الماضي:

لم يأتِ القولُ في الجواب على نفس صيغة القول في السّؤال، فلم يَقُلْ: (فيقول أأنتم أضللتم ... فيقولون سبحانك)؛ بل جاء جوابُهم على صيغة الماضي: ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ﴾؛ للإشارة إلى أنّهم كانوا على حال التّنزيه والتّعظيم في الدّنيا، فالمُضيُّ لتحقُّق الوقوع، وثبوتِ ما في حيّز القول وتحقُّقه أزلًا، فإنّ السُّبْحانيّة لمّا كانت مُتحقّقةً، وكانت هي مقولَ قولهم - طابَقَ اللفظُ مضمونَه في التّحقُّق؛ فجاء بصيغة الماضي[4].

الملائكةُ وعيسى عليه السلام نـقـضـوا تـهـمـةَ الـشّـركِ بتحقيقِ التّنزيهِ

(1) نخبةٌ من العلماء، التّفسير الميسر، ص: 361.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 208، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 337.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 194، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 362.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 45.

دلالةُ التّسبيحِ بلفظِ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾:

العبدُ إذا نزّه اللهَ وسبّحه فقد نزّه نفسَه عنِ الفتنةِ والإثمِ

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ لفعل محذوف؛ أيْ: تنزيهًا لك عمّا لا يليق بك[1]، والتّعبير بالمصدر؛ لتحقيق التّنزيه عنِ الأنداد، ومبالغةً منهم في تبرئة أنفسهم بأجمع الألفاظ التي تدلّ على كمال الاعتقاد عند المُتكلِّم، فنطقوا بتنزيه المعبودِ بحقٍّ ﷻ، وبتنزيه أنفسِهم عن ضلال الذين عبدوهم، وتمامِ عبوديَّتِهم لله العظيم.

نُكْتَةُ تصديرِ القولِ بالتّسبيحِ:

التّخليَةُ مُقدَّمَةٌ على التّحليَةِ

جاء في السّياقِ الكريمِ قوله: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ ولم يَقُلْ: (قالوا ما كان ينبغي لنا... سبحانك) بتأخير التّسبيح؛ بل صَدّروه في الجواب؛ تقديمًا للتّنزيه الإجماليّ على التّنزيه التّفصيليّ، وتقديمًا لما هو شهادةٌ في حقِّ الله، على ما هو شهادةٌ في حقّ أنفسهم، فإنّ تسبيحهم لله عبوديّة، وشهادتهم بأعمالهم تزكيَةٌ، والعبدُ أوثق بما في حقّ الله، منه بما هو في حقّ نفسه، وتنزيهُ الرَّبّ يقينٌ، وتزكيةُ النّفس ظَنٌّ، واليقينُ مُقَدّم على الظَّنّ.

بلاغةُ الكنايةِ في جملةِ التّسبيحِ:

التّسبيحُ تمجيدٌ للهِ، وبراءةٌ منَ الشّركِ

في قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ كنايةٌ عن لازمه منَ التّعجيبِ والاستبعادِ، فالتّعجّبُ حاصلٌ من أنْ يكونوا أندادًا معبودين مع اللهِ ﷻ، والاستبعادُ حاصلٌ من أن يقع منهم إضلالٌ لهؤلاء؛ لأنّهم ملائكةٌ وأنبياءُ معصومون، أو أصنامٌ وجماداتٌ لا تَقْدِر على شيء[2]. "أيْ: كيف يَصِحُّ منّا أن نَصِفَكَ بما لا يليق بجلالك، ونحن عالمون بالتّقديس، وكيف يستقيم لنا أن نَحْمِل غيرَنا أن يتولَّوْنا دونَكَ، ونحنُ العابدون؟"[3].

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 681.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 45.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 194.

دلالةُ عمومِ المَجازِ في ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾:

القائلون بالتّسبيح في قوله: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ هم عمومُ المعبودين منَ العقلاء وغيرِ العقلاء، منَ الملائكة والأنبياء الذين عُبِدوا، ومنَ الأصنام، على معنى أنّ اللّهَ يخلق لها نطقًا على الحقيقة، فتقولُ وتتكلّم كلامًا يقع به الإفهامُ، وعلى اعتبار أنّ الأصنام تقول ذلك بلسان الحال، ففي فعل ﴿قَالُواْ﴾ عمومُ مجازٍ، أو الجمعُ بينَ الحقيقة والمجاز، فالقولُ في العقلاء حقيقةٌ، وفي غير العقلاء مجازٌ[1].

لـلآخِـرة سُـننٌ وأحوالٌ على غير ما تُعورِفَ عليه في الدّنيا

مراعاةُ أسلوبِ الحكيمِ في الجوابِ:

في جوابِ المعبودين: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ على سؤال ربّهم: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي﴾ مراعاةٌ لأسلوبِ الحكيم في الجواب، وهو منَ المُحسّنات البَديعيّة الرّفيعة، فقد أجابوا بما يتطابق مع مقاصد السّؤال، لا بمنطوق السّؤال، فلم يقولوا: (لم نُضِلّهم) بنفي الإضلال، كما هو وارد في السّؤال؛ بل أجابوا بالمقصود الجامع الأعظم، وهو إثباتُ المانعِ منَ الإضلال، وهو أنّهم أهلُ تسبيحٍ للّه، فكيف لهم أن يَخوضوا في ضِدّه منَ الشّرك والكفر، فضلًا عن أن يكون لهم إرادةٌ في تعبيد النّاس لهم، فلمّا كان السّؤالُ عنِ الضّلال والشّرك؛ أجابوا بالإخلاصِ والتّنزيهِ، فدفعوا المشؤومَ بالمَحمودِ، وأعرضوا عن سوءِ لفظِ الأوّل، بِحُسْنِ لفظ الثّاني، ولا يخفى ما فيه من تحرّي المنطقِ الأحسنِ، في مقامِ الاعترافِ للّهِ والاحتجاجِ إليه.

مَن عرفَ للخالقِ حقَّه كـان لحقِّ المخلوقين أرعى وأوعى

دلالةُ النّفي بـ ﴿مَا﴾:

النّفيُ بـ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ أفادَ استمرارَ النّفي؛ أي: انتفاءُ ذلك مستمرٌّ لا ينفكّ عنّا[2].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 46.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 46، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 192.

دلالةُ إقحامِ الكونِ الماضي بينَ النّفي والفِعل:

إظهارُ العِرفانِ بما يجب وما يَخرُم من كمالِ أدبِ أهلِ الإخلاصِ

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (ما ينبغي لنا)؛ بل أقحم الكون الماضي بين أداة النّفي والفعل: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي﴾؛ فأفادَ تحقيقَ النّفي في الماضي واستمرارَه في الحاضر والمستقبل، فتسليطُ النّفي على الكون قبلَ الفِعل ﴿يَنْبَغِي﴾ أفاد تحقيقَ النّفي وتأكيدَه، مع دَفْعِ توهّمِ اقتصارِ النّفي على الحال دون المُضيّ والدّوام.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿يَنْبَغِي﴾:

لا يستأهِل مخلوقٌ أن يكون معبودًا

﴿يَنْبَغِي﴾ هو مطاوع (ابتغى)؛ فيُقال: (ابتغى الشّيء فانبغى له)؛ أيْ: تذلَّل وتسَخّر، وتأتَّى وتَيَسَّر، وكأنّهم قالوا: (ما كان لنا أن نبتغي عبادتهم حتّى تنبغي لنا)؛ فاصطفى هذا الفعلَ ليَدُلَّ على انتفاء المطاوعة والصِّلة بينَ هؤلاء وهؤلاء من جميع الوجوه، مع ما في نفي الفعل ﴿يَنْبَغِي﴾ من الدّلالة على تنزّههم عن بُغيَة ذلك وتجرّدِهم منه، فضلًا عن عدم تيسّره أصلًا لهم؛ لعدم استئهالهم له[1].

فائدةُ التّقييدِ بالمتعلّقِ في ﴿لَنَآ﴾:

أدعياءُ الأُلوهيّةِ يُخالفون تكوينَهم وطبائعَهم ليستمرّوا على ادّعائِهم

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (ما كان ينبغي أن نتّخذ)؛ بل علّق الجارَّ والمجرورَ بالفعل المُشتمل على ضميرهم: ﴿يَنْبَغِي لَنَآ﴾؛ ليدلَّ أنّ هذا مُمتَنِعٌ في حقّهم بقوّةِ العِصْمَة كما في الأنبياءِ والملائكةِ، أو بقوّةِ القَهْرِ الوجوديِّ كما في الأصنامِ والجماداتِ، وليَدُلّ على مفهومه المخالِف، وهو أنّه قد ينبغي لغيرهم بقوّةِ الاختيارِ، كفرعون والنّمرودِ والأباطرةِ المعبودين، ولو حُذِفَ الجارُّ والمجرورُ: ﴿لَنَآ﴾، لكان فيه إلباسٌ بتعميمِ امتناعِ ذلك، فدلَّ قولُه: ﴿لَنَآ﴾ على التّخصيص، كأنّهم قالوا: (ما ينبغي لنا خاصّة؛ لأنّنا غيرُ قابلين لذلك بقوّةِ التّكوينِ وقوّةِ التّشريعِ، بخلافِ غيرِنا الذي ينبغي له ذلك).

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (بغي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بغو).

دلالةُ المصدرِ المؤوّلِ في ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾:

المصدرُ المُؤوّلُ ذو معنيين ينتظمان في سلكٍ واحدٍ

المصدر المُؤوّل من ﴿أَن﴾ و(الفعل) في قوله: ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ وقع فاعلًا لقوله: ﴿يَنْبَغِي﴾؛ أيْ: (ما ينبغي اتّخاذُنا ذلك)، والمصدر المُؤوّل صيغةٌ استيعابيَّةٌ لدلالة الاسميّة ودلالة الفعليّة، فينتظِم فيه معنيان في سِلْكٍ واحدٍ، فيَدلّ على حركة المعنى في الزّمن، وهو الفعليّة، ويدلّ على معنى المصدر في دلالته على أصل الحَدَث وحقيقته، فيجمع بينَ الحُدوث والحَدَث، واستعمالُه - هنا - يدلُّ على كمالِ نفيِ الاتّخاذِ المذكورِ عنهم، وبراءتِهم الكليّةِ منه.

نفيُ الحدثِ دونَ تفصيلاتِه أدلُّ على الشُّمولِ

المصدرُ المُؤوّلُ ولا سيما مع ﴿أَن﴾ يدلُّ على مُجرَّدِ معنى الحدَثِ دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَن﴾ تحصينٌ منَ الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال، فينصرِفُ الكلامُ إلى الحَدَث دونَ صفةٍ من صفاته وهيئاتِه[1]، وتعبيرُهم بالمصدر المُنسبكِ ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ يُراد منه نفيُ حَدَثِ اتّخاذِ المَعبودين مَن يعبدُهم أولياءَ، دونَ كيفيّات ذلك وحالاته؛ ليَشملَ كلَّ صورِ الولاية، وكيفيّاتِها، وماهيّاتِها.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿نَّتَّخِذَ﴾:

الولايةُ صفةُ مُطاوعةٍ بين العابدِ والمعبودِ

قرأ الجمهور: ﴿نَّتَّخِذَ﴾ بالبناء للفاعل؛ أيْ: لا نتخِذ العابدين لنا أولياءَ من دونك، وقرأ أبو جعفر المدنيّ: ﴿نُّتَّخَذَ﴾ بالبناء للمفعول لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ أيْ: لا يَتَّخِذُنا العابدون أولياءَ لهم من دونك، والقراءتان متكاملتان، والجمع بينهما يُفيد ثبوتَ الولايةِ بينَ العابد والمعبود، فالعابدُ يتولّى معبودَه بالتّسليم والتّعظيم، والمعبود يتولّى عابدَه بالتّأييد والقَبول[2].

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن دُونِكَ﴾:

كلُّ معبودٍ سوى اللهِ فهو حطيطٌ في تلك الرُّتبةِ لا يُداني اللهَ فيها

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِكَ﴾ صِلةٌ لتأكيدِ نفيِ الاتّخاذِ عن جانبِ

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 148.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 339.

اللّهِ بالكليّةِ؛ أيْ: لا اتّخاذَ يقع دونَك البتّةَ، ويصِحّ أن تكون ﴿مِن﴾ ابتدائيّةً؛ أيْ: لا يصلُحُ اتّخاذُ وليٍّ من جهةٍ سِواك، وكلّ ما سواكَ دونَك، و﴿مِن﴾ الابتدائيّة - هنا - أخصّ في المعنى مِنْ أن يقول: (نتَّخذ دونك)؛ لأنّه يُعيّن مبدأ الاتّخاذ، وتعيين المَبدأ يُفيد القُربَ وعدمَ الفاصل؛ أي: اتّخاذٌ ناشِئٌ منَ الجهة القريبة الدّانيَة منك التي تليكَ في الرُّتبةِ والمقام، فـ ﴿مِن دُونِكَ﴾ تدلّ على اعتقادهم ومسلكِهم في أنّهم كانوا يتَّخذون هذه المعبودات لِتُقرِّبهم إلى اللّه زُلفى، فهم يتّخذونها من دونه؛ أيْ: بعدَه مباشرةً، أو تدلّ على القُرب الرُّتبيّ، بمعنى أنّهم جعلوها في منزلةٍ قريبةٍ منَ اللّه في استحقاق العبادة، ولكن مع ذلك هي دونَه في الحقيقة ولا تساويه أبدًا، ولو قال: (نتَّخذ دونك) لاحتمل الاتّساع وعدمَ القُرب الرُّتبي، وهذا القُرب الرُّتبي هو كما بينَ الوسائل والغايات، فالوسيلةُ دونَ الغاية؛ لكنّها تقترب منها وتنشأ بعدَها[1].

معنى ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾:

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يُحتمل أن تكون الاستغراقيّة؛ لتأكيد مضمون النّفي، وتُفيد العموم؛ أيْ: لا نتّخِذُ دونَكَ وليًّا قطّ، أيًّا كان جِنسُه أو ماهيّتُه، وفيه: إفادةُ الحَصْر في مفهومه، كأنّه قيل: لا وليَّ إلّا أنت، فكلّ وليٍّ دونَكَ هَدَرٌ.

لا يُزاحِمُ اللهَ في استحقاقِه إلّا العُتاةُ المُجرمون

دلالةُ التّنكير في ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في قوله: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ نكرةٌ في سياق النّفي، فتَعُمّ[2]؛ لتشملَ كلَّ جنسِ الموجودات.

دلالةُ الاستدراكِ في ﴿وَلَٰكِن﴾:

قولُه: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ استدراكٌ معطوفٌ على ما قبْلَه داخِلٌ

تجريحُ الجاني في الشّهادةِ عليه بما يستحِقُّه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 681.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 339.

في حيّز القول في: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾، وهو استدراكُ توطئةٍ إلى الغايةِ بعدَه في قوله: ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ فالجملةُ الغائيّة مِنْ ﴿حَتَّىٰ﴾ وما في حيّزها هي المقصودةُ بالاستدراك، وجملة: ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ توسّلٌ إلى الغايةِ بسببِها.

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾:

التَّعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾ أفاد تحقُّقَ التّمتُّعِ ووقوعه، إمّا لأنّهم استوفَوا منه، وإمّا لأنّ هذا الجوابَ يومَ الحساب والتّمتيعُ المَذكور في أيّام الدّنيا؛ وكلاهما مُرادٌ.

دلالةُ الخطابِ في ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾ دونَ: (مُتِّعوا):

نـزّهَـهُـمُ اللـهُ بالإنعامِ والمتَاعِ، ولـم يُـنـزِّهـوه بـالإخـلاصِ والعُبوديّةِ

لم يُقلْ في السّياق الكريم: (ولكن مُتِّعوا) بالبناء للمفعول؛ بل جاء الفعل بضمير الخطاب للذّات العَليّة: ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾؛ لأنّه الأصل في السّياق، والنَّظمُ جارٍ على الخطاب في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، فحُقَّ له أن يَطَّرِد على الخطابِ عند ذِكْر آثار السُّبحانيّة الإلَهيّة، وهو الإنعام بالتّمتيع، فكما خاطبوه بالتّنزيه ذاتًا في ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ خاطبوه كذلك بالتّنزيه فِعلًا في: ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾؛ ليَدُلَّ على أنّه نزَّهَهُم بالإنعام والمتاع، ومع ذلك لم يُنزِّهوه بالإخلاص وإفرادِه باستحقاق العبوديّة، ولا يخفى ما فيه منَ التّعريض بهؤلاء العابدين، وتسجيلِ المَذمَّةِ عليهم، وأيضًا: خطابُ المعبودين للجليل بـ ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾ فيه ثناءٌ منهم عليه سبحانَه بما يستلزمُ البَرهنة منهم على صحّة اعتقادِهم بنسبةِ الفضائلِ إلى اللّه وحدَه، وهذا من تَتِمَّةِ براءَتهم في قضيّة العابدين لهم، فأثْنَوا عليه إجمالًا بـ ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، وأَثْنَوا عليه تفصيلًا أو تفسيرًا بـ ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾، ويَكَأنَّهم فسَّروا الثّناءَ الأوّل بالثّناء الثّاني.

أعـظـمُ النِّـعـمِ مـا اجـتـمـع فيه راحةُ البدنِ وقِلّة التّدبير

دلالةُ عطفِ الآباءِ عليهم:

قوله: ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ معطوفٌ على ضمير الجمع في: ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾؛

أيْ: متّعتهم ومتّعتَ آباءَهم، وفائدةُ ذِكْرِ الآباءِ: الدّلالةُ على أنّهم ورِثوا النّعيمَ والمتاعَ، فهم مُتأصّلون فيه، قد آلَ إليهم هذا التّمتيعُ على راحةٍ ويُسْرٍ على غير نَصَبٍ وعناءٍ، ففي ذِكْرِ الآباءِ دلالةٌ على أنّ هذا التّمتيعَ المَذكورَ تمتيعٌ عظيمٌ، وأنّه إنعامٌ كثيفٌ بعضُه فوقَ بعضٍ، فكونُهم وُلِدوا في هذا التّمتيعِ عند آبائِهم نِعمةٌ عظيمةٌ، وكونُ التَّمتيعِ دامَ لهم نعمةٌ أُخرى أعظمُ.

دلالةُ جعلِ النّسيان غايةً للتّمتيعِ:

التّرفُ يُنسي ويُطغي

جَعْلُ تَمتيعِهم في جملةِ الاستدراكِ سببًا لنِسيانهم ونسيانِهم غايةً له وصْفٌ لحالِهم بما لا يُبْقي لهم عُذْرًا، ولا يُتَوَهَّم معه ذريعةٌ في ضلالهم؛ لأنّه ربّما تَوهّم مُتوهِّمٌ أنّ بؤسَ عَيْشِهم كان ذريعةً في انقطاعهم عنِ الذِّكرى والاهتداء، فأَخبَروا عنهم بما ينبغي أن يكون سببًا في الإيمانِ والإحسانِ، فواجهوه بالكفرِ والنّسيانِ، وتلك هي نُكْتَةُ عدمِ الاكتفاءِ بجملةِ الغاية، ولذلك لم يُقَلْ: (ولكن نسوا الذّكر)؛ ليجمعوا في جوابهم على ربّهم تمامَ البراءةِ لأنفسهم، وتمامَ الجنايةِ لعابديهم وانقطاعِ الحُجّةِ عنهم.

دلالةُ ﴿حَتَّىٰ﴾ في ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ﴾:

النّسيانُ وعدمُ الاكتراثِ بالحَقِّ غايةُ كُفرانِ النِّعمِ

﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ حرفُ غايةٍ وجَرٍّ، ولذا فإنّه يُفَسَّرُ بحرف الانتهاء، كأنّه قيل: (إلى أنْ نسوا الذّكر)، فالجملةُ بعدَ ﴿حَتَّىٰ﴾ صلةُ موصولٍ حرفيٍّ مُقَدَّر، والمصدرُ المُؤوّل منَ الموصول المُقدَّر والفعل مجرورٌ بـ ﴿حَتَّىٰ﴾[1].

دلالةُ جَعْلِ نسيانِ الذِّكْر مِن نواتجِ التّمتُّعِ:

لا يَخْجُبُ عنِ الذِّكرِ إلّا إلهاءٌ عظيمٌ

جَعْلُ نسيانِ الذِّكْر من نواتج التّمتُّع في قوله: ﴿مَتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ كنايةٌ عن عِظَمِ هذا التّمتُّع ووفْرتِه وبَسْطَتِه؛ لأنّه

(1) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 325.

أدّى بهم إلى نسيان الذِّكْر والضّلال، ولا يَحْجُب عنِ الذِّكر إلّا إلهاءٌ عظيمٌ، وهو كنايةٌ أيضًا عنِ استغراقهم في التّمتّع حتّى غاب بهم عنِ استحضار الذِّكْرِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالنّسيانِ:

ما يـزالُ العبدُ يتركُ الخيرَ حتّى ينساه

التّعبيرُ بالنّسيانِ في قولِهِ: ﴿نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ مجازٌ مُرسلٌ، أَطْلَق فيه النّسيان وأراد التّرْك؛ أيْ: تركوا الذِّكْر؛ لأنّ الذِّكْر لائحٌ لا يُنسَى، فهم تاركوه على ذُكْرٍ منهم؛ فشُبِّه حالُهم في التّرْكِ والمُجانَبَةِ للذِّكْر بحالِ النّاسي شيئًا بالكلّيّة فلا يستحضِره، فيغيبُ عنه ويَترُكُه، فيجري هذا التّشبيهُ على الاستعارة التّمثيليّة في التّركيب.

دلالةُ إسنادِ النّسيانِ للذِّكْرِ:

أهـدرَ حياتَـه مَـن لـم تنفَعْهُ الذِّكْرَى

إسنادُ النّسيان للذِّكْر خاصّة دونَ الوحي أوِ الحقّ أوِ العِلْم أوِ الكتاب، وغيرِ ذلك، فيه مقابلةٌ معنويّةٌ بديعةٌ، ومبالغةٌ في وصفِ ضلالهم؛ لأنّ الاستذكارَ يقابلُ النّسيانَ، فإذا نَسوا ما هو من خصائصه أنّه باعِثٌ على الذِّكْر والفِكْر، ومع ذلك نَسوه، ويْكَأنّه يقول: نَسَوا حقيقةَ الذِّكْر، فعاشوا بالنّسيان لا بالاستذكار، فضلّوا شَرَّ ضَلالٍ.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾:

الـذِّكْـرُ كـائـنٌ في كـلّ مـا يـبعـثُ عـلـى الـتّـذكُّـرِ واليقظةِ

(أل) في ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ للجنس؛ أيْ: كلّ ما هو من خصيصته وحقيقته أنّه ذِكْرٌ يحفظ منَ الضّلال والنّسيان، وكأنّه أراد مَلَكَةَ التّذكّر والجاهزيّة لها، فأخبر أنّهم من كثرة ضلالهم قد عُدِموا ذلك، وطُمِس على مَلَكاتِهم، واختيارُ اللّفظ تعريضٌ بهم، أو (أل) للعهد؛ أيْ: ذِكْر الوحي والكتاب، أو (أل) التّعويضيّة عن مُضافٍ إليه محذوف؛ أيْ: ذِكرك، أو ذِكْرَ اللّه[1].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 49.

دلالةُ العطفِ بالكونِ الماضي:

العطفُ بالكونِ الماضي في الإخبارِ عنهم في قولِه: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا﴾ يَدُلُّ على أنّ غالب أحوالِهم الضّلال، ولم يعتادوا صلاحًا ولا استقامةً.

دلالةُ الإخبارِ عنهم بـ ﴿قَوْمًا﴾:

الاجتماعُ على الكفرِ يُغري بعدمِ النّظرِ والتّحريرِ

التّعبير عنهم بـ ﴿قَوْمًا﴾ فيه إشارةٌ إلى إجماعهم على الضّلال إجماعَ تقويةٍ وتقويمٍ وتآلُفٍ، وأنّ مسلكهم في عبادةِ الأندادِ كان مسلكَ قومٍ مجتمعين عليه، يُقوّي بعضُهم بعضًا، ويتكاثرون عليه ويتظاهرون حتّى صارَ الضّلالُ دُستورًا بينَهم يُدافعون عنه[1].

دلالةُ الوصفِ بالمصدر ﴿بُورًا﴾:

للضّلالِ غيبوبةٌ تُفسِدُ القلوبَ وتُبير النّفوسَ

وَصْفُ القومِ بالمَصدر الذي يَصْدُق على الواحد والجماعة، والمُذكّر والمُؤنّث في قوله: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا﴾، مبالغةٌ في وصف حالِهم المُتمكّنة من عاقبة السّوء، لمّا تمكّنوا من أسبابها منَ الضّلال، فجَعَلَهم كأنّهم خُلِقوا منَ البور الذي هو الهلاك، وكأنّ حقيقةَ البوارِ متركِّبةٌ فيهم لا تنفكّ عنهم، ولتقرير هذا التّمكُّن من حقيقة الوصف المُقرِّر لمضمون ما قبله لم يُقل: (نَسوا الذّكرَ وباروا)؛ للدّلالة على أنّ نسيانَهم كان عملًا، وبوارَهم كان جَزاءً، هم فيه ماكثون، ولا يخفى ما في التّعبير بالاسميّة دونَ الفعليّة من صيانة الفاصلة ألّا تنخرِم[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البور والهَلاك:

الهلاكُ هو نتيجةُ البورِ

الفرقُ الدّقيق بينَ البور والهَلاك كالفرقِ بينَ السَّببِ والنّتيجة؛ فالبور في حقيقته كسادٌ وتَعَطُّلٌ وبُطلانٌ وفسادٌ يُنتِج الهلاكَ ويُؤدّي

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قوم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 341.

إليه، فالهلاكُ هو نتيجةُ البور، وغلبَ إطلاقُه على نفْس الهلاك استعمالًا لا أصلًا، من باب تسميَة الشّيء باسم ما يَؤول إليه، ويَتوجَّهُ أن يُقال: إنّ البور وجوهٌ عديدةٌ، منها الهلاكُ أو في نهايتها الهلاكُ، والهلاكُ وجهٌ واحد هو الزَّوالُ والفناء، أو ما يجري مجراهما ممّا يدلّ على حالة الانعدام والنّفاد التّامّ، ونُكْتَةُ استعمالِ البورِ هنا في قوله: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ دون الهلاك، هو الدَّلالةُ عليهم في حال الدّنيا؛ لأنّ السّياق يتناول حالًا لهم في الدّنيا في قوله: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا﴾؛ فهو يُشير إلى ما آلَ إليه حالُهم في العمل والمَسلَك بعد نسيانهم الذّكر، وهو أنّهم كانوا قومًا بورًا، لا يُنتِجون عملًا صالحًا، ويُفْسِدون في الأرض ولا يُصْلِحون؛ فهم يعيشون حالةً من كساد الأحوال وفسادِ الأعمال، وهي حالةُ البور، كالأرض البور التي لا تنتِج، وإذا أنتجتْ ضَرَّتْ وما نفعتْ، ولا ريبَ أنّ مَن كانت هذه حالَه، فهو صائرٌ إلى الهلاك لا محالةَ، ولذا عَبّر بالبور، كأنّه قال: وكانوا قومًا بطّالين مُبْطِلين مُحبَطي الأعمال لا خيرَ فيهم، ولا عاقبةَ لهم إلّا الهلاك، ولو قال: (وكانوا قوما هالكين)؛ لأوهمَ أنّه يقصد الحالةَ الخاصّة منَ الهلاك، وهو وقتُ نزولِ العذابِ بهم في الدُّنيا، أو الهلاكِ الأُخْرَويّ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»